دفاعاً عن الحرية : ليلى بعلبكي

« ان محاكمة ليلى بعلبكي هي الاولى من نوعها في تاريخ القضاء اللبناني ، وهذه هي المرة الاولى التي يحاكم فيها كاتب على كتاب ألفه » . هذا الذي قاله الاستاذ محسن سليم ، محامي الآنسة بعلبكي في قضية كتابها « سفينة حنان الى القمر » ، يعطي هذه القضية الأهمية التي أعطيتها في الاوساط الفكرية والأدبية في لبنان وخارجه .

وكانت المؤلفة قد تقدمت بمجموعتها (وقد نشرت احدى قصصها ، التي سمي الكتاب بكامله باسمها ، اولاً في « حوار ») الى مسابقة جمعية أصدقاء الكتاب للقصة القصيرة في العام الفائت ، ولم تربح الجائزة . وقد شاعت آنذاك أقاويل كثيرة عن اسباب ، لا علاقة لها بالأدب ، حرمت هذه المجموعة من الجائزة . الا ان قضية الكتاب طرحت الموضوع على بساط البحث من جديد ، ونشر احد اعضاء اللجنة المكلفة بمنح الجائزة مقالاً ذكر فيه ان اللجنة كانت قد قررت بالاجماع منح الجائزة لليلى بعلبكي لكنها رأت ان تحجب الجائزة عنها لأن كتابها « فيه شيء من الحرية الادبية التي لم تصبح مألوفة بعد في الادب العربي الى الحد الذي يسمح للجنة بتحميل الدولة مسؤولية الجائزة ! »

ومضت ثمانية أشهر منذ صدور الكتاب ، مرخصاً به من وزارة الأنباء (ومضت أشهر أطول منذ صدور القصص التي يضمها مبعثرة في المجلات) ، وقيل فيه الكثير . وفجأة ، قامت السلطات بمصادرة الكتاب من ناشره ومن المكتبات المختلفة ، واحتجزت شرطة الاخلاق المؤلفة ثلاث ساعات ونصف الساعة واستجوبتها ، وأحالتها الى المحاكمة .

وكان السبب المباشر لذلك تعليقاً ورد في مجلة « صباح الخير » القاهرية بامضاء معلقة اسمها « نادية » . فاقتبست في تعليقها مقطعاً من اربعة اسطر ورد في الكتاب (وجاءت فيه كلمة « لحوس » التي لعبت فيما بعد دوراً رئيسياً في القضية) واختتمت كلمتها القصيرة بقولها : « شعرت بقشعريرة وبتقزز ، وقلت لنفسي بضيق : يا ست ليلى بعلبكي ، لحوس ايه ، وحام ايه ، وطرية وناعمة ايه ، وأدب ايه ؟ ملعون هذا الادب يا شيخة ! »

وقد نقمت بعض الصحف في بيروت على اهتمام السلطات فيها بملاحقة الكتاب لمجرد نشر نقد له في مجلة « صباح الخير » بالذات . ووجدت نوعاً من « العدالة » في ان احسان عبد القدوس نفسه ، صاحب هذه المجلة ، تعرض فيما بعد لمشاكل مماثلة في القاهرة لروايته الجديدة « أنف وثلاث عيون » ، التي قال المستشار في ادارة قضايا الحكومة في القاهرة في عريضة الدعوى انها « تتضمن انحلالاً وتحطيماً لكل القيم الانسانية والروحية والخلقية

والدينية ، فضلاً عن منافاتها لأبسط قواعد الآداب العـــامة » . وربما كانت مثل هذه الملاحقـات في بال الاستاذ عبد القدوس عنـدما كتب في زاوية له في « روزاليوسف » : « كارثة على الادب العربي على وشك ان تهب . وعندما تمتد يد غير المختصين وغير الفاهمين لتحاول ان تخنق انتاجاً أدبياً ، فهي كارثة . ليست كارثة على واحد من الادباء ، ولكنها كارثة على كل الادباء ، وعلى الادب » .

وقد وصفت الآنسة بعلبكي استجواب مفوض شرطة الاخلاق لها :

لم أتمكن من اخفاء استغرابي وهو يسألني : لماذا تكتبين بهذه الطريقة ؟ وسألت انا نفسي هل يحق لأحد ان يسأل فنـــاناً لماذا يكتب هكذا ؟ بصوت مرتفع أجبت : لانني اعتبر نفسي اتمتع بحرية الرأي والفكر والعمل الممنوحة لكل شخص في لبنان .

سؤال : ألا يتهيج المراهقون بعد قراءة كتابك ، ويحب مصادرته ؟

جواب : الكتاب يتكلم عن البشر ، عن الناس ، عن الاشخاص ، في هذا البـــلد . يصور الواقع بطريقة ادبية فنية. واذا كانت تجب مصادرته فالأصح ان يصادر البشر هنا، لانهم مادته...

سؤال : لماذا استعملت هذه الكلمة بالذات ؟ جواب . لم اجب . بماذا اجيب ؟ هل علي ان افسر لماذا استعملت هذه الكلمة بالذات ، لا تلك ، لحظة خلقي الفني ؟ من هو الوصي على الموهبة هنا عندنا في لبنان ؟ من ؟ شرطة الاخلاق ؟ من هو المحاسب ؟ من هو المعاقب ؟

ثم افتراء . افتراء اخذ كلمة واحدة ونزع ما قبلها وما بعدها وحصر التهمة بها .

وانتهى الاستجواب ، والدقائق ثقيـــلة تزحف في عيني ، والصمت يزيد غضبي واستنكاري الاخرس . كان المقصود ان يشعرني بالخجل مما اكتب ، وبالذنب . واحسست فقط انني وحدي في غابة ، وكنت مليئة بالحزن ، حزن كبير يغرق العالم .

وسرعان ما جاءت ردود الفعل بين أوساط الادباء والمفكرين والفنانين . وكان أبرز هذه الردود بيانين هامين ، جاء في أولهما :

نحن الموقعين نؤكد ايماننا بحرية الفكر وتمسكنا بكرامة الكاتب ، ونعتبر كل تعرض لهما او تعد عليهما امتهاناً لحرمة الخلق والابداع ، ولذا نستنكر مصادرة كتاب الاديبة ليلى بعلبكي ، كما نستنكر استحضار الكاتبة واستجوابها امام شرطة الاخلاق ، ونرى في هذا التدبير ما يجـــاوز موضوع كتاب معين او كاتبة معينة الى صميم الحرية الفكرية التي هي القوام الحيوي لمختلف وجوه النشاط في لبنان ... ونحن على يقين ان الحرية الفكرية التي نعلن تعلقنا بها انما هي متنفس الادب الحق ، فضلاً عن كونها من اهم الاسباب لتبلور القيم الروحية ولتفجير الطاقات الخلاقة على مستوى الافراد والجماعات .

وجاء في الثاني :

يعتبر مفهوم الحرية بابعـــاده كافة ، وخاصة حرية الفكر والرأي والتعبير الفني ، جزءاً لا يتجزأ من وجود لبنان . ولقد وقع بالامس ما يعتبر تجاوزاً على حرية التعبير عندما قامت الدولة

ممثلة بالمحقق وشرطة الاخلاق بمصادرة كتاب ليلى بعلبكي بتهمة الاخلال « بالاخلاق العـامة » وبالتحقيق مع صاحبته من قبل شرطة الاخلاق في مركز الشرطة ، وتلا ذلك مصادرة الكتـاب من الناشر ومن المكتبات كافة .

ان هذا الاجراء يدعو الى التساؤل عن ماهية الرقابة في لبنان ، وعن الجهة المسؤولة عنها : أهي شرطة الاخلاق ، ومسؤوليتها كما نعلم ذات « طبيعة خاصة » ، ام جهـاز للرقابة ملحق بوزارة الانباء يقوم بمراقبة الاعمال الادبية على اساس تقييمها فنياً والنظر اليها على ضوء ما تقتضيه المصلحة العامة ؟

وقد وقع البيانين حوالي خمسين أديباً ومفكراً وفناناً .

وبالاضافة الى هذين البيانين كتب كثير من الادباء في موضوع الكتاب بالذات والقضية بوجه عام . فبعث الاستاذ خليل تقي الدين ، سفير لبنان في لندن ، وهو أديب معروف، بتقرير الى وزارة الخارجية جاء فيه :

ولا اخفي عليكم انني استغربت كما استغرب الكثيرون في خارج لبنـان وفي داخله ان تقدم شرطة الاخلاق والنيابة العامة على مصادرة كتاب كهذا وملاحقة مؤلفته بحجة انه مخالف للآداب في بلد كلبنان كان ولا يزال يقدس الحرية الفكرية ويصونها ويقيم الدليل كل يوم على انه بلد التحرر والتجدد لا بلد التحجر والجمود .

ان ادب ليلى بعلبكي ليس ادباً رخيصاً ، ولا مبتذلاً ، ولا اباحياً . انه ادب نابض بالحيـاة يصور جيلاً يعيش بيننا بلحمه ودمه ومشاعره واحاسيسه ويحسن التصوير . فهل يسأل الاديب ويلاحق ويحاكم اذا رأى وشعر وكان الادب وسيلته الى نقل الصور والتعبير عن الشعور ؟

وأخذ كثير من الكتاب على السلطات الطريقة التي أثيرت بها القضية واستجوبت بها الكاتبة ، وذكّرتها بالنواحي والاماكن الذي يجدر بها تنظيفها . وأشار ابراهيم سلامة في « المحرر » الى ان الاخلاق تعني اشياء كثيرة فلماذا لا تهتم الحكومة الا بجانب واحد من اللاأخلاق ، هو الجانب الجنسي :

لماذا لا تكافح حكومتنا الرشوة ، وهي السرقة المكشوفة ؟ ايها اكثر لا اخلاقية ، عبـارة « لحوس اذنيها » او تعطيل مصالح الناس يومياً في مصالح الدولة حتى يدفعوا الرشوة المتفق عليها للموظف لانهاء معاملاتهم العادية؟ اين تبدو اللااخلاقية اوضح وافصح، في «سفينة حنان الى القمر» ام في السفن الروسية الثلاث المحملة بالسكر الابيض والتي بيعت موادها بأسعار معروفة جيداً لدى المواطنين ؟

وشبهت الصحف القضية بقضيـة « مدام بوفاري » و « أزاهير الشر » و « عشيق ليدي تشاترلي » و « لوليتا » .

ورأى كتاب آخرون في القضية مغزى اشمل . فقال انسي الحاج في «ملحق النهار» :

مسألة ليلى بعلبكي حدثت وستحدث ما دام في العالم دول . انها ذهبت ضحية لانها امرأة ولانها

معروفة ولان رأيها صريح في النظام البوليسي . الصراع بين الاديب والنظام ظاهرة روتينية لا جديد فيها . وأكاد اقول يجب ان يكافح النظام الادباء ، ففي وجود كل من الاثنين نفي للآخر .

ورأى يوسف الخال ان « ليلى بعلبكي في الحبس اضخم دعاية للبنان » ، ونادى : « سوقوها الى السجن ولا تخيبوا ظننا . الماء ركدت وأسنت بما فيه الكفاية ، وحان ان تحركها هذه الصخرة » . وكتب جميل جبر في « الجريدة » : « القضية التي أثارت اهل القلم عندنا تتجاوز ليلى بعلبكي وكتابها . انها قضية كرامة كاتب واحترام رأي . انها قضية الحرية فخر لبنان وركيزة مبررات وجوده . ان الاديب الاصيل في لبنان ليأبى ان يتخذ صون الاخلاق ذريعة للنيل من حرية الفكر » . وتساءل رفيق خوري : « ألا تكفينا مصادرة حرياتنا السياسية والاجتماعية حتى يصادروا حريتنا الادبية ؟ »

لكن رد الفعل لم يكن كله مدافعاً محبذاً . فقد استنكرت الهيئات النسائية الكتاب وطالبت بحرقه وقالت ان المؤلفة « تصرفت تصرفاً شاذاً لا يجوز ان يصدر عن فتاة » . وذكر معلق في « التلغراف » يسمي نفسه «الفيلسوف الصغير» انه لم يقرأ الكتاب، وراح مع هذا يشير على المؤلفة بان « تكتب للعالم الخارجي ، حيث يتذوقون هذا النوع من الكتابة؛ اما هنا في لبنان، فالادب الخلاق هو الذي يحترم شعور القارىء ولا يثير غريزته ولا يؤثر على المراهقين » .

وارسلت « الحوادث » مندوبها الى رئيس لجنة مكافحة البغاء فوجده يقرأ « سفينة حنان الى القمر » وقال : « لا يجوز مطلقاً ان ينشر مثل هذا الكلام ، ونحن نعيش في مجتمع نحرص على ان يكون على مستوى خلقي رفيع وبيئة شرقية محافظة، مع احترامي لأدب الكاتبة » ، — هذا في ذات الوقت الذي صرح فيه للمندوب بخصوص المايوه العاري بان القضية قضية زمن وتغير عادات ، وان هذا الزي « لا بد وان يصل الى هنا ويصبح شيئاً عادياً لا يلفت النظر في المستقبل » .

وتصدت السيدة ثريا ملحس للهجوم على الرجال في معرض دفاعها عن الفضيلة ، فقالت في « الحسناء » :

كان الرجل ولا يزال سبب هلاك المرأة . يستدرجها بمعسول الكلام ، حتى اذا صدقت قوله تصدى لها رجل آخر ليقتلها او يقطعها ارباً ارباً . الرجل العربي لم يتغير كثيراً ولو تغيرت اساليبه . فهو الآن يشجعها باسم الادب والفن ، وهي تقبل على ذلك بنهم ، ظناً منها انها تختصر طريق الشهرة ، ويشيع الخبر بانها اكثر تحرراً من اختها ، واجرأ على التحدث عن احساساتها الجنسية،فيربت على كتفيها، ناسياً او متناسياً ان هناك رجالاً آخرين يتصيدونها ليقتلوها معنويا ...

اننا لا نرضى ان تتحول الكتابة الى كلمات وقحة تجتمع لتتحدث الينـــا عن نزوة عابرة . وهناك قصص وحكايات واحوال وقصائد لا تقل وقاحة ووباء ، نتمنى لو تقوم جماعة من المربين والمفكرين لتقويمها . فان فشل الشعب فلماذا تلومون « شرطة الاخلاق للاستجوابات » ؟

وتساءل سعيد فريحة في « الصياد » كيف يمكن لليلى بعلبكي ان تكتب ادب جنس ما دام أدب الجنس هو أدب التجارب ، « وليلى فتاة شرقية ما تزال في عمر الورود » ؟ (تبلغ الآنسة بعلبكي الثامنة والعشرين من العمر) . وأردف : « وهل يعقل ان تعيش فتاة في مثل وضعها وسنها ادب الجنس كما عاشه احسان عبد القدوس وعشته انا مثلا ؟ »

لكن احداً لم يصـــل في هجومه الدرك الذي وصله تعليق غير موقع في « الشعب » :

ان كانت ليلى بعلبكي تريد ان تحيا ، فلتحيا وحدها مع القذارات والكلاب . ولكن لتدع الناس وشأنهم. ليس نقمة على نزعة واقعية نقمتنا على ليلى بعلبكي، فليلى ليست واقعية اولاً وهي ليست في كتاباتها فنانة ثانياً. فالانسان لايعيش مع رعشات الكلاب والفن لاينمو حول القذارات.

وأزف موعد المحاكمة . وصرحت الآنسة بعلبكي قبيل المحاكمة بقولها :

لن اعتذر في غرفة المحاكمة ، امام هيئة المحكمة ، عن الاشياء التي كتبتهـــا والتي احاكم من اجلها . بالعكس . سأدافع وسأؤكـد كل جمـــلة كتبتها ، كل كلمة ، كل حرف ، كل نقطة وكل فاصلة . انني جد فخورة بما كتبت .

انني اسأل : هل العطاء هو جريمة ؟ ذنب ؟ خجل ؟ انني اؤكد واشعر ان هذه القضية تطال جميع الادباء والفنانين وهي تحد من الخلق والفن .

ان هذا الشيء معيب بان اقف امام المحكمة واشرح لماذا كتبت. انا اكتب بحرية . انني اكتب للنخبة ، للمثقفين ، الى ذوي الافكار السامية ، الى الناس الناضجين . انا ارفض ان اكتب لمرضى الاخلاق وللمقعدين وللمتأخرين عقلياً .

انني ذاهبة غداً الى المحاكمة بكل فخر واعتزاز . على اعتقـاد مني بان الحق لي والقانون بجانبي. ولايماني الوثيق بالعدالة . واتمنى ان تكون هذه القضية تجربة مفيدة تمنع الحد من الحريات والاساءة لها ، سواء اكان الشخص اديباً ام غير اديب .

وعندما انعقدت المحكمة طلبت النيابة العـامة ان تكون المحاكمة سرية « حفاظاً على الآداب والاخلاق العامة » . لكن الدفاع طلب ان تجري بصورة علنيـة « لكي يطلع الرأي العام على حقيقة التهمة وما اذا كانت الملاحقة في محلها ام لا ، خصوصاً وانه سوف يتساءل ويذهب بتفسيرات شتى فيما اذا قررت المحكمة اجراء المحاكمة السرية » . فأجيب الدفاع الى طلبه .

وطالب الدفاع بأن يجري تعيين لجنة من الادباء لابداء رأيهم في الكتاب والتقرير فيما اذا كانت المؤلفة قد أساءت الى الاخلاق والآداب العامة ام انها توخت من كتـابها انتاجاً أدبياً وتصويرياً ، « وهؤلاء الادباء يكونون بمثـابة خبراء لدى المحكمة لا يقيدها رأيهم ،

ولكن رأيهم يكون على سبيل الإفادة والارشاد فقط » . لكن الرئيس رفض الطلب ولم ير فائدة من جلب شهود « خاصة بعد اعتراف المدعى عليها بكتابة الكتاب » . (وقد صرح فيما بعد القانوني فؤاد رزق: « لا مجال لمثل هذا الطلب، لأن الهيئة الحاكمة مؤلفة من أدباء وأبناء وأحفاد أدباء ورجال علم وطب وصيدلة ») .

واخذ الدفاع على النيابة العامة وعلى دائرة الاخلاق استجلابها المؤلفة الى دائرة الاخلاق لاستجوابها ، فقد كان اولى بهما ان تستدعياها الى قصر العدل وان يتم استجوابها على يد احد قضاة التحقيق . واشار الى ان الكتاب يحمل ترخيصاً قانونياً بطبعه ونشره، لذا فالدفاع يعتبر ان الملاحقة غير قانونية .

وشدد على ان ليلى بعلبكي أديبة ، « والاديبة آلة تصوير ولكنها تصور الكلمات والحروف بسبكها في قوالب تبرز فيها افكارها بحرية متجردة . لذلك وجب النظر الى مجموع الكتاب وهو من ٢٠٠ صفحة ، لا النظر الى عبارات ثلاث وردت واعتبرت ماسة بالاخلاق ، وهي ابعد ما تكون عن ذلك » . وطالب ببراءة المؤلفة .

وطالبت النيابة العامة بتطبيق مادة تقضي بحبس المؤلفة من شهر الى ستة اشهر وبتغريمها من ١٠ ليرات الى ١٠٠ .

في هذه الاثناء كانت عدة صحف اجنبية كبيرة قد اخذت تهتم بالموضوع ، فنشرت « الاوبزيرفر » مقالاً في صفحتها الاولى ، وجعلتها « جان افريك » موضوع صورة الغلاف ومقال رئيسي فيها ، وكتبت عنها « فرانس سوار » و « الديلي اكسبرس » . ووصلها عرضان من داري نشر في بريطانيا وامريكا . كما منحها نادي «الفوبور» في بيروت جائزته لتمسكها بحرية التعبير .

وفي ٢٣ تموز (يوليو) التأمت المحكمة واعطت قرارها في الدعوى . وقد جاء في قرارها ما يلي :

وحيث ان المدعى عليها تنكر ان يكون القصد من الكتاب اثارة الغرائز الجنسية ؛ وحيث ما من شك ان هنالك عبارات ، وهي التي ضربت عليها النيابة العامة بحبر احمر ، تبدو بظاهرها اذا ما عزلت عن سابقاتها واللاحقات بها، مخلة بالاخلاق والآداب العامة ، الا ان ما يجب مراعاته بوجه عام ، وهذا ما تميل اليه المحكمة ، هو ان اي كتاب او اي اثر فني يجب ان ينظر اليه كوحدة تامة لا تتجزأ توصلاً لاستقصاء غاية مؤلفه او واضعه واستكشافاً لنيته ؛ ...

وحيث انه ، على ضوء ما تقدم ، ترى المحكمة ان المدعى عليها في معظم اقاصيصها لم تكن تبغي اثارة الغرائز الجنسية، لا بل على العكس من ذلك، فانها (كما في اقصوصتها «القطة») كانت

تصور الواقع على حقيقته وبشاعته ، لتخلص منه الى توجيه درس قاس ، يحسن تلقينه لأي كان، خشية الانزلاق في دروب موحشة ، كما وانها كانت تصور تقاليد (اقصوصة « كنت مهرة ») وفوارق ما تزال مرعية الجانب في بلد واحد وبين شعب واحد (اقصوصة « لن ينتهي الغضب») والتي غالباً ما تؤدي الى اسوأ العواقب ، ذلك لان التجربة على نطاق البشر تظل اكثر ايلاماً وضراوة منها على اي نطاق آخر (اقصوصة « التجربة ») ؛ ...

وحيث انه على ضوء هذه الاسس فان المحكمة ترى ان المدعى عليها في نطاق كتابها ، ولئن تعمدت الواقعية والحقيقة السافرتين فسمت الاشياء بأسمائهـا وعرضت شخوصهـا على مسرح مكشوف، فانما كان ذلك في سبيل بلورة الفكرة والغاية اللتين تهدف اليهما، غير المخالفين للآداب، تماماً كما يستعرض الانسان حقيقته امام مرآة ليصلح ما يشوشها ؛

وحيث انه يتحصل مما تقدم ان الكتاب موضوع الملاحقة لا يهدف بما حواه من اقاصيص اية اثارة للغرائز الجنسية ، انما كان وليد رغبة ملحة في الانعتاق من بيئة ضيقة ودعوة الى مواجهة الحقيقة السافرة والعمـل على تحسس هذه الحقيقة بعينين صامدتين للنور ، يمكن لهما ان يميزا بين الخير والشر فيختارا الافضل والاحسن ، لا بعينين ضرب عليهما رمد التقاليد نسجاً من غباوة؛

وحيث ان ليس في ذلك ما يؤلف جرماً يقع تحت طائلة العقاب، الامر الذي يستتبع وجوب الحكم بوقف التعقبات الجارية بحق المدعى عليها ليلى بعلبكي وبالتالي بحق المدعى عليه جورج غريب؛

لذلك ، وبعد الاستماع الى المطالعة ، نحكم بالاتفاق : بوقف التعقبات الجارية بحق المدعى عليها ليلى بعلبكي وجورج غريب وبعدم ايجاب الرسوم ورفع قرار المصادرة واعادة الكتب المضبوطة الى اصحابها .

وقد هللت الصحافة لهذا القرار، ورأى محامي الدفاع ان براءة الكتاب من قبل القضاء:

معناها انتصار العدالة على الذين ارادوا الاعتداء على الحرية في لبنان — ومعناها ايضاً ان الحرية الادبية والفكرية لا تزال تتمتع بكامل حقوقها في هذا الوطن العزيز . فليلى بعلبكي كان لها شرف الفداء ودفع الجزية – وقد قبلت هذه التضحية بكل جرأة وشجاعة – فكان لهـا الفضل الاكبر في ربح المعركة لمصلحـة جميع من يهمهم ان يبقى لبنان وطن الحرية وحصنها الاصيل. اما القضاء اللبناني فيكفيه فخراً انه برهن مرة جديدة انه الضمانة الكبرى لحماية الحرية في كل مرة تتعرض هذه الحرية لعبث العابثين .

وكتبت ليلى بعلبكي ، التي كانت قد وصفت نفسها في هذه القضية بأنهـا وحدها في غابة ، كتبت اثر ذلك تقول :

جاء اليوم خلاصنا . نعم خلاصنا نحن ، الذين هي القضية قضيتهم . يشرفني ان اكون سبب هذا الحادث التاريخي . واعتبر حكم اليوم وساماً اعتز به وافتخر ، واعتبر كل ما حدث اروع قصة يمكن ان تحدث لي ، بكل ما فيهـا من حزن وقساوة وفرح . والآن يمكنني ان استمر اهتدي بشلال الضوء الذي يبهر .